

ما في أحشائهم من لهب، ولكنهم لا يتجرعون كئوسها حتى تزداد أكبادهم احتراقاً ويزداد اللهب في أجوافهم تلظيًّا واضطراباً، فهم يتداون منها بها؛ كما يقول الأعشى، ويتخذون داءها دواء؛ كما يقول أبو نواس، ولو قد استطاع شهريار أن يجعل ليل شهرزاد كله حلماً ينطق بهذا الحديث العذب والقصص الجميل لفعل، ولكن من له بذلك وقد قدرت له أحلام صاحبه تقديراً، وقطرت له أحاديثها تقطيراً؛ فهي تبدأ في موعد موقوت لا تستطيع أن تسبقه، وتنتهي عند أجل محدود لا تستطيع أن تتجاوزه، وقد كان قادراً على أن يستزيد شهرزاد حين كانت تحدثه مستيقظة، وكان قادراً أن يستوضحها إن أشكل عليه بعض الحديث، فأما الآن فهو لا يستطيع أن يستزيدها ولا أن يستوضحها؛ لأنها لا تعرف أنها تقص عليه شيئاً، ولا تعقل مما تقص عليه شيئاً. بل هو لا يستطيع أن يشير إلى هذه الأحاديث التي تلقيها إليه أحلام شهرزاد، فقد قال له طائفه فيما قال: «احذر أن تنبها من قريب أو بعيد إلى هذا القصص؛ فإنك إن تفعل لم تزد على أن ترد عنها الأحلام وتحرم نفسك ما بقي لها من هذه اللذة المختلصة.»

وكان الضيق قد بلغ بشهريار غايته حين بلغت أذنيه أصوات الطير المستيقظة وهي تستقبل النهار فرحة مرحة، وتتلقى ضوء الشمس مبهجة به أعظم الابتهاج نشيطة له أشد النشاط، وقد وقعت هذه الأصوات العذبة المختلفة من نفس الملك أحسن وقع، فثاب إلى قلبه المذعور شيء من أمن وإلى نفسه اليأس شيء من رجاء، وإذا هو يجد حاجة قوية إلى أن يغتدي مع الطير، ويسلم نفسه إلى هذه الطبيعة الحرة المرحمة المبهجة، فيفنى فيها ويصبح جزءاً من أجزائها وعنصراً من عناصرها ساعة أو ساعات، وها هو ذا يسعى إلى طنف من أطناف الغرفة، فيشرف منه على هذه الجنة المطيفة بالقصر، والتي لا يبلغ الطرف أرجاءها مهما يمتد ومن أي ناحية يمتد، وإذا هو يفتح صدره للنسيم العذب، وعينه للضوء المشرق، وسمعه للأصوات التي يتغنى بها الفضاء العريض، وإذا هو ينسى نفسه أو يكاد ينساها، لا يكاد يشعر إلا بأنه يخطو خطوات متثاقلة يتبع بعضها بعضاً في أناة وبطء، وقد ذهل عما حوله وذهل عنه ما حوله، وهو يهبط درجات السلم رزيناً متثاقلاً يكاد يترنح ترنح الثمل السكران، وهو يسعى لا يكاد يحس خطاه لأن قدميه لا تماسان الأرض، وإنما تتنقلان على هذا البساط الكثيف الذي نسجته الطبيعة ونسجه معها البستانيون من سندس العشب، وما يزال كذلك يسعى أمامه لا يُلَوِّي على شيء حتى يحس في مثل الحلم كأنه ينعطف عن غير إرادة إلى اليمين؛ لأن طريقه كانت تقتضي الانعطاف إلى يمين، فيمضي ويمضي، وهو يحس في نفسه حسرة ضئيلة خفية؛ لأنه لا